٧
الإسلام واليهود

عندما جاء الوحى إلى النبى محمد ﷺ أول مرة ، فزع واضطرب ، وذهب مع خديجة زوجه إلى ابن عمها ورقة بن نوفل الذى قال عن الوحى « إن هذا هو الناموس الذى كان ينزل على موسى ، وإن محمدا لنبىّ هذه الأمة (أمة العرب) » ، بذلك القول فإن ورقة تخطى المسيحية (النصرانية) كما تجاوز عيسى عليه السلام ، ورابط بين موسى ومحمد ﷺ ، كما وحدّ بين الوحى (أو ملاك الرب) الذى ظهر لموسى والوحى (الملك) الذى جاء إلى النبى .

ورقة بن نوفل هذا ، كان نصرانيا يقرأ التوراة والإنجيل ، ويعرف اللغة العبرية ، ويترجم منها إلى العربية ، وقد صار من جماعة الحنيفية ؛ وهى جماعة من أفراد متفرقين كانوا يرون أن الشريعة القويمة هى فى اتباع ملّة (طريقة) إبراهيم ، وكانوا يختتنون دون أن يتهودوا ، وأطلق عليهم اليهود لفظ الحنيف العبرى ، بمعنى المائل (أى الذى حاد عن شريعتهم) ، ثم صار اللفظ – لدى عرب ما قبل الإسلام – يطلق على كل فرد من الجماعة المذكورة (الحنيفية) . وورقة هذا ، الذى بشر النبى محمدا ﷺ بأنه نبى هذه الأمة ، وأن الناموس الذى جاءه هو الناموس (الوحى) الذى كان ينزل على موسى ، توفى فى السنة الثالثة للبعثة النبوية دون أن يُسْلم .

تواتر نزول الوحى على النبى ﷺ منذ جاءه أول مرة حتى وفاته (٦١٠–٦٣٢) وخلال هذه الفترة (٢٣ سنة) نزل القرآن منجمًا ، أى مجزءًا ، كل آية منه أو كل مجموعة من الآيات تتنزل لأسباب ، فى مكانها وزمانها ، حتى اكتمل القرآن . وقد وردت قصة موسى به فى ثمانية عشر موضعا ، كما أن اسم موسى تكرر ١٣٦ مرة ، وورد لفظ بنى إسرائيل فى ٤٠ مكانًا ؛ وهو ما يدل على عناية خاصة بموسى ، وخطاب مميز لبنى إسرائيل .

من القرآن ، ومن القرآن وحده ، ينبغى استبانة حقيقة الوحى ، ومعنى الألوهية ، والخطاب القرآنى لبنى إسرائيل ، وشأن الأرض الموعودة أو أرض الميعاد .

فى القرآن ﴿نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربى مبين﴾ سورة الشعراء ٢٦ : ١٩٣ – ١٩٥ . وفيه ﴿علّمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى﴾ سورة النجم ٥٣ : ٥ – ٦ ، وفيه ﴿وما نتزل إلا بأمر ربك﴾ سورة مريم ١٩ : ٦٤ . ومفاد ذلك ، وغيرها من الآيات ، أن الوحى الذى جاء إلى النبى ﷺ كان يتنزل بأمر الله ، على قلب النبى . وهو معنى يفاصل بين الوحى (الملك) وبين الله ذاته ، ولا يخلط بينهما ، أو يضع أحدهما موضع الآخر .

والقرآن يقطع بأن الله ، الذى يدعو إلى عبادته وحده بلا شريك ، هو رب العالمين ، وإله كل الرسل والأنبياء ، وهو الذى أوحى إليهم رسالاتهم ودعواتهم ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحًا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ سورة الشورى ٤٢ : ١٣ ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى

موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ سورة البقرة ٢ : ١٦٤ ، ﴿ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك﴾ سورة النساء ٤ : ١٦٤ ، ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ سورة الأنبياء ٢١ : ٢٥ ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون ، وسليمان ، وآتينا داوود زبورًا﴾ سورة النساء ٤ : ١٦٣ .

وحى الله إلى الرسل والأنبياء ، الذين قص القرآن عنهم والذين لم يقصص ، محدد فى القرآن ﴿ ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيًا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحى بإذنه ما يشاء﴾ سورة الشورى ٤٢ : ٥١ ، أى أن الله لا يكلم بشرا قط وإنما يوحى إليه ما يبثه فى روعه أو ينفثه فى وعيه ، أو يكون ذلك من وراء حجاب ، أى من خلف حاجز (معنوى أو غيبى لا شك) ، أو يرسل إليه رسولاً فيوحى الرسول إلى البشر ، لهذا جاء إثر الآية الأخيرة آية تقول ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا﴾ سورة الشورى ٤٢ : ٥٢ ؛ بمعنى أن الوحى إلى النبى محمد ﷺ كان عن طريق رسول من عند الله أو روح من أمره . ماحدث لموسى إذن ، حيث كلّمة الله ، كان استثناء من القاعدة أو شأنًا خاصًّا به وحده ، ذلك أن القرآن يقطع بأن الله كَلم موسى بالكلام ﴿ وكلم الله موسى تكليمًا﴾ سورة النساء ٤ : ١٦٤ ، وتكون آية ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، منهم من كلم الله﴾ سورة البقرة ٢ : ٢٥٣ ، إشارة إلى موسى وحده ، الذى وردت الآية تقطع بأن الله كلمه تكليما ، أى بالكلام المباشر وليس بالإلقاء فى الروع أو النشر فى الوعى .

بهذا يقطع القرآن كذلك أن الذى كلّم موسى كلامًا مباشرًا هو الله وليس الملك (أو ملاك الرب) كما قد يستفاد من النص التوراتى .

فيما يتعلق برسالة موسى إلى فرعون ، فإن القرآن يؤيد رواية التوراة فى هذا الصدد ، ثم يستطرد إلى أمر آخر لم يرد فيها ، ﴿ وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين .. فأتيا فرعون فقولا (موسى وهارون) إنا رسول رب العالمين ، أن أرسل معنا بنى إسرائيل .. قال فرعون وما رب العالمين .. قال (فرعون) لئن اتخذت إلهًا غيرى لأجعلنك من المسجونين ..﴾ سورة الشعراء ٢٦ : ١٠ – ٢٩ . فوفقًا لما جاء فى القرآن ذهب موسى وهارون إلى فرعون يسألانه أن يرسل (يُطْلق) معهم بنى إسرائيل ، استطرد الحوار فلما سأل فرعون عن سبب ذلك وقال موسى ﴿فوهب لى ربى حكمًا وجعلنى من المرسلين﴾ سورة الشعراء ٢٦ : ٢١ ، عجب فرعون وهدد إن هما (موسى وهارون) اتخذا إلهًا غيره فسوف يسجنهما ، ثم توالت الأحداث . موسى إذن – على ماجاء فى التوارة وفى القرآن – لم يرسل إلى فرعون أصلاً برسالة هداية ، بل ليطلب إطلاق بنى إسرائيل ، ثم تداعت الواقعات ، على النحو الذى فصله القرآن ؛ وهو أمر تؤكده الآية ﴿ولما وقع عليهم الرجز قالوا ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل﴾ سورة الأعراف ٧ : ٣٤ . فالقضية الأساسية كانت إرسال بنى إسرائيل مع موسى خارج مصر ، ولم تكن هداية قوم فرعون .

لم يحدث جمْع القرآن وفق نظام تاريخى ، يراعى وقت نزول كل آية على مدى ٢٣ عاما ، وإنما تم الترتيب على أساس توقيفى ، إذ استقر الأثر الإسلامى على أن الوحى هو الذى نظمه مع النبى ﷺ ، وقد قام

المستشرق الألمانى نولدكه بمحاولة لترتيب آيات القرآن باعتبار وقت نزولها ، غير أن كتابه فى ذلك بالألمانية ، ولم يُترجم إلى العربية ولا إلى الإنجليزية ، وقام المستشرق الفرنسى بلاشير بمحاولة أخرى ، غير أنها لم تَلْقَ ذيوعًا . وبصدد الآيات التى تتضمن خطابا لبنى إسرائيل ، ولأنها تتضمن فى بعضها تقديرًا وفى بعضها تكديرًا ، فإن تلمس أوقات تنزيلها ضرورة لا مفر منها ، وهو أمر لابد أن يستقصى الظروف التاريخية ويستنطق السياق القرآنى ؛ إذ يلوح أن آيات التقدير جاءت أولاً ثم تلتها آيات التكدير ، عندما حدث خلاف بين المسلمين واليهود .

ففى القرآن ﴿يابنى إسرائيل أذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين﴾ سورة البقرة ٢ : ٤٧ ، ﴿ يابنى إسرائيل أذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أُوفِ بعهدكم﴾ سورة البقرة ٢ : ٤٠ ، ﴿ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين .. ولقد اخترناهم على علمٍ على العالمين﴾ سورة الدخان ٤٤ : ٣٠ – ٣٢

وبصدد الأرض الموعودة ، أو أرض الميعاد ، جاء فى القرآن ﴿يا بنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن﴾ سورة طه ٢٠ : ٨٠ ، ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ سورة البقرة ٢ : ٩٣ ، ﴿ إذ قال موسى لقومه يا قوم أذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكًا وآتاكم مالم يؤت أحدًا من العالمين . ياقوم أدخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم﴾ سورة المائدة ٥ : ٢٠–٢١ ، ﴿قلنا .. لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض﴾ سورة الإسراء ١٧ : ١٠٤ .

لو فُسرت آيات الخطاب القرآنى لبنى إسرائيل على عموم ألفاظها ،

على النحو الذى تقرره القاعدة الفقهية التقليدية فى التفسير ، لكانت نتيجة ذلك أن بنى إسرائيل مفضلون من الله على العالمين بإطلاق ، وأنهم الشعب المختار ، اختارهم الله على علم ، وأقام عهدًا بينه وبينهم ؛ أما عندما تُفسَّر هذه الآيات وفقا للقاعدة الأصولية التى تربط تفسير الآيات بأسباب تنزيلها ، وتفهمها فى السياق التاريخى التى وردت ضمنه ، فإنها تفيد أنها خاصة ببنى إسرائيل فى عهد موسى ، ولا تمتد إلى سواهم ؛ على الرغم من أنها خطاب لبنى إسرائيل المعاصرين للنبى وقت التنزيل ، فهذا الخطاب خطاب للتذكير بأمر مضى وليس خطابًا للتأكيد على واقع حاضر ؛ خاصة أن اليهود الذين كانوا فى أرض الحجاز وقت تنزيل القرآن هم يهود بالثقافة أو يهودًا بالشريعة ، وليسوا يهودًا بالجنس أو يهودا بالعنصر ؛ ذلك بأن بنى إسرائيل بالجنس والعنصر كانت قد تبددت منهم عشر قبائل – على ما سلف البيان – إثر تشتيت الآشوريين لهم من مملكتى إسرائيل ويهوذا ، ثم دخل اليهودية كثير من خارج الجنس الأصلى والعنصر الأول ، فأصبحت اليهودية معنى ثقافيًا يضم اليهود بالثقافة أو بالشريعة ، ولا يقتصر على أبناء وأحفاد يعقوب من صلْبه ، وأصلاب أولاده وأحفاده ، على عامود الخَلف .

أما الآيات الخاصة بأرض الميعاد ، الأرض المقدسة الموعودة ، فإنه تسرى عليها نفس القواعد السابقة ، فلو فُسرت على عموم الألفاظ لكان الوعد بالأرض قائمًا مستمرًا إلى الأبد ، وهذا عين ما يقوله متطرفو اليهود . ولو فسرت على أسباب التنزيل ووفقا للسياق التاريخى ، فإنها تعنى أنها حكم مخصص بجماعة بعينها وموقوتة بفترة بذاتها ، وقد انتهى الحكم بالشتات الذى أكدت عليه النصوص التوراتية ويكون خطاب القرآن ليهود عصر النبى بها هو خطاب على التبكيت وليس خطابًا إلى التثبيت .

وكذلك الحال فى الآية ﴿ وأوفوا بعهدى أوفى بعهدكم﴾ ، فالعهد ، أو الميثاق كما يقول القرآن ، هو الذى قام بين موسى وقومه وبين الله ، لعبادته وحده والاستقامة فى التصرف ، فلما حدث نقض للعهد جاء الجزاء فى الشتات والآلام والأحزان . ولا يغير من هذا النظر أن التعبير القرآنى ، فى هذه الآية والآيات الأخرى السالفة ، جاء فى ضمير المخاطَب وبصيغة الحاضر ، لأن التعبير بذلك أسلوب قرآنى دارج ، يستخدم ضمير المخاطَب للفت النظر وشد الانتباه ، ويفرغ الماضى فى صيغة الحاضر لربط حلقات التاريخ وجعلها منظورًا واحدًا .

عندما سمع يهود يثرب (المدينة) عن النبى ﷺ سرّهم أمره ، خاصة مع مافى آيات القرآن من عناية بموسى نبيهم وكليم الله ، ولما فى القرآن فى خطاب مميز لهم معنىّ بتاريخهم ، وكان ميل اليهود للنبى ﷺ من الأسباب التى ساعدت على مبايعة جماعة من قبيلتى الأوس والخزرج – القحطانيتين والمقيمتين فى يثرب – للنبى ثم هجرته إليهم .

حينما كان النبى على مشارف يثرب قال اليهود للعرب من أهل المدينة : هذا جَدّكم ، أى هذا حظكم . وقد أقام النبى ﷺ والمهاجرون فى يثرب التى سميت مدينة النبى أو المدينة اختصارًا إلى أن حدثت وقعة بدر (رمضان سنة ٢ هـ) فرأى النبى ، فى فطرة ثاقبة وحنكة عملية أن يعقد حلفًا بين المؤمنين والمسلمين من قريش (المهاجرون) ويثرب (المدينة ، وهم الأنصار) وبين يهود المدينة ، وهو الحلف الذى حُرِّر فى صحيفة وأخذ اسمها ، وفيها تم الاتفاق على التعاون بين المتحالفين ، وأن يظل كل فريق على رِبْعته (أى على وضعه) بحيث يبقى اليهود يهودًا والمسلمون مسلمين ، لكل منهم نظامه وعوائده . وأن ينفق اليهود مع المؤمنين ماداموا محاربين ،

فيكون على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، فيتناصرون ويتبارّون ويتقاسمون الغنائم .

وقد لوحظ أن الصحيفة خلت من البطون الكبيرة فى الأوس والخزرج ، كما خلت من قبيلة بنى قينقاع اليهودية . غير أنها تضمنت اليهود من موالى بنى النجار ، وبنو النجار هؤلاء هم أخوال النبى ﷺ .

يهود يثرب (المدينة) كانوا ثلاث قبائل رئيسية : بنو قينقاع ، وبنو النضير وبنو قريظة ، وقد وقع بينهم جميعا خلاف شديد مع النبى ﷺ والمسلمين لأسباب كثيرة ، أهمها أسباب ثلاثة :

أولاً : فقد رفض اليهود جميعا أن يتحولوا إلى الإسلام ، فيما خلا عددًا قليلاً ، منهم : كعب الأحبار ، وعبد الله بن سلام ، وعبد الله بن سبأ (وإسلامه متأخر) ، وهؤلاء وغيرهم منهم أساءوا إلى الإسلام كثيرًا من داخله ، إذ نقلوا إلى الفكر الإسلامى آراء خاطئة وتفاسير مغلوطة ومعلومات شعبية (فولكلورية) مضطربة ، مما أصبح يعرف بالإسرائيليات التى تُحدث اضطرابًا شديدًا فى الفكر والوجدان الإسلامى ، ومن الصعوبة البالغة أن يمكن فصلها وتجنيبها دون مآس بالغة وصراعات خطيرة . ويكفى فى ذلك أن يذكر التاريخ الإسلامى أن لابن سبأ أثرا كبيرًا فى حدوث الفتنة الكبرى أيام عثمان وعلى ، وهى فتنة أثرت على التاريخ الإسلامى والفكر الإسلامى والمسلمين أنفسهم بصورة لم تزل قائمة حتى اليوم ، وسوف تظل إلى مستقبل بعيد . وكانت وجهة نظر اليهود فى عدم اعتناق الإسلام أن النبى محمدًا ﷺ هو نبى إلى أمته من العرب ، وأن نبيهم لابد أن يكون من نسل داوود ، أى بنى إسرائيل ، وليس من ولد إسماعيل .

ثانيًا : وقد قام بعض المسلمين من قبيلتى الأوس والخزرج باغتيال يهوديين كان لهما شأن مهم ، هما كعب بن الأشرف أحد كبار يهود بنى النضير ، وأبو رافع سلام بن أبى الحقيق ، وكان سبب الاغتيال أن هذين اليهودين أظهرا عداوة للنبى ، وقد هجاه كعبٌ بشعر رأوا فيه إساءة للنبى .

وعلى الرغم من أن كتب السيرة تؤكد موافقة النبى على الاغتيال ، بل والأمر به ؛ وقد ورد فى صحيح البخارى حديثان (من أحاديث الآحاد) يأمران بالاغتيال (مَنْ لكعب بن الأشرف ، ومن لأبى رافع ؟) وهو الأمر الذى يدعو المحرضين على اغتيال الأحرار والمستنيرين فى الوقت الحالى أن يقولوا ويكتبوا « إن الشباب المسلم يعرف سنة النبى » يقصدون تحريض الشباب المغرر به على اقتراف وقائع اغتيال مماثلة ، لمن هو خصم لهم يعدونه خصمًا للإسلام ظلمًا وعدوانًا ؛ على الرغم من ذلك ، فقد أثبتنا بأدلة قاطعة أن النبى لم يأمر ، ولا يمكن أن يأمر ، بمثل هذا الاغتيال (يراجع كتابنا معالم الإسلام ، الفصل الخاص بتاريخ الإرهاب فى الشرق الأوسط) .

ثالثًا : وقد وقعت أحداث فردية ، أو خاصة ، بكل قبيلة على حدة ، إذ وقع نزاع بين يهودى وجماعة من المسلمين فى سوق بالمدينة ، وانتهى الأمر بإجلاء يهود بنى قينقاع من المدينة ، وتقول كتب التاريخ الإسلامى إن بنى النضير تآمروا على قتل النبى ﷺ بإلقاء حجر من علوٍّ عليه وهو جالس . وانتهى الأمر بإجلاء يهود بنى النضير من المدينة ، فذهب بعضهم ومنهم حُيَىّ بن أخطب والد صفية زوج النبى إلى خيبر ، بينما اتجه الآخرون شمالاً إلى الشام ، وكانت قبيلة بنى قريظة تقيم فى حصن على طرف المدينة ، فلما تسامع المسلمون باتجاه الأحزاب إليهم لحصارهم وإفنائهم فى المدينة ، أقاموا خندقًا حولها (بمشورة سلمان

الفارسى) ، وكان الخندق يحيط المدينة من كل نواحيها عدا منطقة واحدة كان فيها حصن بنى قريظة . ورد فى كتب السير أن يهود بنى قريظة قدموا للمسلمين أدوات سهلت حفر الخندق وحجزت الأحزاب عن دخول المدينة إلا أن يَسْمح لهم بنو قريظة بالعبور إليها من داخل حصنهم . وأرّق هذا الاحتمال النبى ﷺ والمسلمين حتى انتهت الغزوة دون غزو ، إذ دُبرت وقيعة بين اليهود والأحزاب ، وترك هؤلاء مواقعهم وعادوا إلى مكة بغير حرب . وحكم سعد بن معاذ زعيم الأوس بقتل رجال اليهود وسبى نسائهم وأطفالهم جزاء خيانتهم ، ونُفذ الحكم فعلاً .

قامت العداوة إذن بين المسلمين واليهود ، واشتدت فى بعض الأحيان واستُعملت فيها صياغات دينية وعبارات قاسية ، وظل الحال كذلك ، بين مد وجزر ، صعود وهبوط ، حتى أشرقت شمس الحضارة الإسلامية فى القرون الثانى والثالث والرابع الهجرى (الثامن والتاسع والعاشر الميلادى) فأذابت بحرارتها كل الخصومات وأنارت بأشعتها الجوانب الزاهية فى الطابع الإسلامى ، فامتلأ جو الحياة الاجتماعية والفكرية بالتسامح والتفاهم والتوادّ . وأنس اليهود وأمنوا للعيش فى الديار الإسلامية أكثر مما أنسوا وأمنوا بالعيش فى أى مكان آخر . وظل الحال كذلك حتى صدر وعد بالفور ، ثم تكثفت الهجرات اليهودية إلى أرض فلسطين ، ثم بدأت المنظمات العسكرية الصهيونية فى عملياتها العسكرية ضد الأبرياء الآمنين من عرب فلسطين مسلمين ومسيحيين ، ثم صدر قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين ، ثم أعلن إنشاء دولة إسرائيل فى ١٥ مايو ١٩٤٨ ، ثم استدرج العرب بدهاء سياسى محكم إلى حروب ١٩٤٨ ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ فهزموا فيها جميعًا ، وران الإحباط على

نفوس العرب وحلت المرارة فى حلوقهم وسرى الغضب فى دمائهم ، واستعيدت عداوة الماضى من جديد .

خلال ذلك كله استُخدم الدين حتى من غير المتدينين على الجانبين . فالصهيونية ذات النزعة غير الدينية استعملت ورقة الدين لتقنع البسطاء ، وغير البسطاء ، من اليهود بالهجرة إلى أرض الميعاد ، وتحقيق الإرادة الإلهية ، وتأكيد رضاء الرب عنهم ، وإعادة بناء الهيكل المقدس فى أورشليم عاصمة إسرائيل منذ ٣٠٠٠ سنة ، كما يقال . وهى كلها أقوال تخالف ما يعرفه علماء التاريخ ، حتى من اليهود ، وتُسقط عامل الزمن ، وتغفل التطور البشرى والعقائدى خلال آلاف السنين ؛ هذا فضلا عن أنها تتصرف كما لو كانت اليهودية لجنس بذاته أو لعنصر خاص ، مع أن اليهودية صارت منذ زمن بعيد يهودية ثقافية تضم المعتنقين لشريعتها والمنطبعين بثقافتها مهما كانت أصولهم غير إسرائيلية ، شأنها فى ذلك شأن العروبة الثقافية ، التى تضم شعوبًا شتى من أصول فرعونية وقبطية وآشورية وفينيقية وبربرية ونوبية وغيرها .

وعمدت جماعات الإسلام السياسى (وهى الوجه المقابل بين المسلمين للأيديولوجية اليهودية ، أى الصهيونية) ، إلى تدين الصراع العربى الإسرائيلى . وفى ذلك فقد لجئوا إلى آيات قرآنية يريدون بها أن يدمغوا اليهود عمومًا بأنهم أعداء الله ، وأن الله قد ضرب عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب منه ، وأنهم أبناء القردة والخنازير ، ففى القرآن ﴿ ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ سورة آل عمران

٢ : ١١٢ ؛ ﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ سورة البقرة ٢ : ٦٥ ، ﴿ وجعل منهم القردة والخنازير﴾ سورة المائدة ٥ : ٦٠ .

والذى يقرأ هذه الآيات بالمنطق العقلى والمنهج القرآنى ، بعيدًا عن الجدل السياسى والتخطّف اللفظى ، سوف يرى ، ما هو واضح من الآيات السابقة عن بنى إسرائيل ، أنها تتعلق بجماعة منهم مضت وأمّة منهم خلت ، ولا يتصل بغير هؤلاء أبدًا . ففى الآية الأولى – مثلاً – ما يشير إلى قتل الأنبياء ، وهو مالم يحدث من يهود عصر النبى ، ولا من غيرهم بعده لانتهاء النبوات . ولو أن الوحى قصد غير ذلك ، أو أن النبى فهم ماعداه ، لما دعا إلى رسالته قومًا ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ؛ وكيف يسعى إلى هداية قوم مغضوب عليهم ، ومحكوم عليهم بالهوان ، وهم ليسوا بشرًا بل قردة وخنازير ؟ يضاف إلى ذلك ، أن وصم شعب بعينه مدى الأجيال باللعنة الإلهية ووصفه طوال التاريخ بالذلة والمسكنة ، أمر ينافى روح الإسلام ويجافى نصوص القرآن التى تقوم على المسئولية الفردية أساسا بحيث لا يؤخذ الشخص إلا بعمله هو ، خيرًا بخير وشرًّا بشر ، بما يعنى أنه لا يؤخذ بعمل أجداده وآبائه ولايساءل عن عمل غيره قط ﴿قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون﴾ سورة سبأ ٣٤ : ٢٥ ، ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مُثْقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى﴾ سورة فاطر ٣٥ : ١٨ .

إن الحروب اللفظية والصراعات الكلامية التى تريد أن تستعمل الآيات السالفة مباشرة على عموم ألفاظها وتجعلها مطلقة فى كل اليهود ، عليها

أن تتنبه أن نفس المنطق الشائه وذات الأسلوب الخاطئ يؤدى إلى تعميم وإطلاق وديمومة الآيات التى تتعلق بتفضيل بنى إسرائيل على العالمين ، واختيار الله لهم على علم ، وكتابته لهم الأرض المقدسة ، أرض الميعاد . وفى التقدير السليم والتفسير السديد أنه لا هذه الآيات ولاتلك ، مطلقة مؤبدة ، لكنها مخصصة بقوم بذاتهم ، مؤقتة بفترة محددة ؛ وفيما عدا هؤلاء وفيما بعدهم ، فكل إنسان وعمله ، وكل فرد ومايأتى ، وكل امرئ وما يكون ؛ لا توريث للآثام ولا تخليف للأوزار .

الصراع بين العرب وإسرائيل صراع بين العروبة الثقافية واليهودية الثقافية ، أخذت فيه اليهودية بأسباب الحضارة فحققت – حتى الآن – نجاحًا عسكريًّا وفلاحًا حضاريًّا ، بينما أعرضت العروبة عن أسباب الحضارة ، واكتفت منها بالمظهر البراق والترف الاستهلاكى ، فخابت وهزمت . وإنه من الضرورى أن يوصف الصراع بوصفه الصحيح وأن يوضع فى الموضع المضبوط ، حتى يمكن علاج الخطأ وتوقى الانحراف وتلافى الزيوغ . أما اللجوء إلى الظواهر الصوتية والمعارك الكلامية والصراعات اللفظية ، فهو أمر يفيد الخصم ولا يفيد العرب ، لأنه يفرّغ طاقاتهم فى الأصوات والألفاظ والكلام ، ولأنه يصيبهم بالخدْر الذى يحجبهم عن رؤية الحقيقة ؛ هذا فضلاً عن أنه يسىء للإسلام أيما إساءة ، حين يجعل من بعض آياته مفردات فى لغة السباب وشعارات فى المهاترات السياسية .

إن الصراع بين العرب إسرائيل صراع حضارى فى الأساس والجوهر والوسائل ، وإقحام الدين فى هذا الصراع ، أو استغلاله من أحد

الطرفين ، عمل أيديولوجى وعبث سياسى وعوج حزبى ، خاصة مع ما سلف تقديمه وتوثيقه من أن العرب عرب بالثقافة وأن اليهود يهود بالثقافة ، وأن العصر الحالى بإزاء عروبة ثقافية ويهودية ثقافية ؛ كل منها بعيد عن الجنس الواحد ، بعيد عن العنصر الفرد ، بعيد عن العرْق الخالص .

متى كان الحال كذلك ، فكيف يكون حل الصراع على أرض الواقع ! ؟ ذلك هو السؤال .

obeikandl.com